

سلسلة مطبوعات
هيئة الشام الإسلامية (41)



مدخل إلى فقه السلفية

إعداد
المكتب العلمي
في هيئة الشام الإسلامية



الطبعة الأولى
1440هـ | 2019م



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومن والاه، وبعد: فإن الحديث عن الجماعات والتيارات؛ نشأتها وتاريخها ومناهجها وتطوراتها وآثارها وواقعها: طويلٌ ومتشعب، وكثيراً ما تجنح البحوث فيه عن الموضوعية إلى طرفي الجفاء أو التعصب، أو يكون عند الباحث حكم مسبق يريد أن يوجه بحثه إليه لغرض في نفسه، أو يكون الباحث ممن يقفو ما ليس له به علم، ويكتفي بأقوال سمعها، أو مقالات يرددها الخصوم أو المتعصبون دون تحقيق، فيقدم تصوراً مغلوطاً أو منقوصاً لما يكتب عنه.

ومن التيارات الإسلامية التي كثر فيها الجدل، والأخذ والرد: تيارٌ عريض في حياة الأمة، أصيلٌ في تاريخها، كبيرٌ في تأثيره وتفاعله مع سائر طبقاتها وتياراتها، وهو التيار السلفي، كتب عنه كثيرون ممن يجهلون على الحقيقة، ومعرفتهم به سطحية، أو من لهم مع بعض المنتسبين إليه خصومة ولم يستطيعوا أن يتجردوا منها، أو من نسبوا إليه جماعات

منحرفة -هي بعدما تكون عن أصوله وتقريرات علمائه- ثم حاكموه بأفعالهم، أو تصرفات أفرادهم.

يضاف إلى ذلك موجة الاستعداد العالمي «للسلفية» الذي يصل إلى حدّ التجريم في بعض البلدان.

كلُّ ذلك أدى إلى رسم صورة ذهنية مشوهة عن التيار السلفي عند شريحة عريضة من الناس، يشعر معها مَنْ أراد أن يكتب عنها بموضوعية بصعوبة المهمة وتعقيدها، ومشقة العمل ووعورته.

وهذه الأوراق محاولةٌ لرسم منارات مضيئة، ومسارات واضحة تسهم في التعريف الإجمالي بهذا التيار بعبارة مختصرة، بعيداً عن التفاصيل، مستندين إلى الدليل والتاريخ والمنطق، لعلها تساعد في تكوين فهمٍ أفضل، وتصوّر أدق من خلال توضيح الصورة، وكشف الالتباس، وتصحيح المفاهيم المغلوطة عن «السلفية»، ولعلها أيضاً تقدم الإجابات لما يكثر تداوله والسؤال عنه، ولم نتوسع فيها رغبة في أن تكون مختصرة المباحث، قريبة التناول، سهلة الاطلاع.

وقد جعلناها في المحاور التالية:

أولاً: تعريف السلف والسلفية.

ثانياً: معالم منهج السلف.

ثالثاً: السلفية عبر التاريخ.

رابعاً: النماذج المشوهة للسلفية.

خامساً: مسائل تُثار حول السلفية.

وبالله التوفيق

أولاً

تعريف السلف والسلفية

السلف لغة:

السلفية منسوبة إلى كلمة السلف، وهي مشتقة من الفعل «سَلَفَ» الذي يعني في لغة العرب: تقدّم، والسالف المتقدّم، والسلفُ الجماعة المتقدّمون، وسلفُ الرجل: أبأؤه المتقدّمون^(١).

وقد ورد هذا الجذر (س ل ف) في القرآن الكريم في ست آيات: البقرة ٢٥٧، والنساء ٢٣، والأنفال ٣٨، ويونس ٣٠، والزخرف ٥٦، والحاقة ٢٤، وجميع معانيها تدور على: المتقدّم، والسابق، والماضي، وما قبل زمن الكلام.

كما وردت في السنة في هذا المعنى في عددٍ من الأحاديث، كقوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: (نعم السلفُ أنا لك) متفق عليه^(٢)، وقوله في حديث ابنته زينب رضي الله عنها: (الحقي بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون)^(٣).

كما ورد هذا الاستخدام في العديد من كلام الأئمة وعباراتهم في العصور المتقدمة.

(١) انظر: المصباح المنير ص (٢٣٥)، القاموس المحيط ص (٨٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/٦٤، برقم ٦٢٨٥)، ومسلم (٤/١٩٠٤، برقم ٢٤٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٥٣٠، برقم ٢١٢٧).

السلف اصطلاحًا:

إذا أطلقت عبارة «سلف هذه الأمة» فالمقصود بها: القرون الثلاثة التي عاشت في صدر الإسلام، من الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين، وهي القرون التي جاءت النصوص بخيريتها على من بعدها سائر قرون الأمة، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) متفق عليه^(١).

فهم السلف الصالح ومكاته في الدين:

القرآن والسنة هما المرجع لهذه الأمة في تشريعاتها وسائر أمورها بالاتفاق، لكن لما تفاوتت أفهام الناس وتأويلاتهم ومواقفهم من نصوص الوحيين واضطربت، وظهرت الانحرافات والبدع التي تزعم أنّها على الحق، وأنها تتبع الكتاب والسنة، ظهرت الدعوة إلى التماس الحق والصواب والنجاة في منهج السلف الصالح - من القرون المفضلة الأولى - في التعامل مع النصوص وتطبيقهم للإسلام، وسمي هذا التوجه بـ «منهج السلف الصالح»، وهو يشمل كل من اتبع هذا المنهج وسار عليه من أعلام الأمة ومجتهديها، بما فيهم الأئمة الأربعة رضي الله عنهم رحمهم الله وأتباعهم، وقد أُطلق في العصور المتأخرة على من تمسك بهذا المنهج «السلفية» أو «السلفيون».

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٧١، برقم ٢٦٥٢)، ومسلم (٤/ ١٩٦٣، برقم ٢٥٣٣).

دور منهج السلف في حفظ الدين وإعادته إلى نقائه:

منهج السلف الصالح ليس مدرسة بعينها، أو اختيارات فقهية محددة، بل هو منهج علماء الأمة المتمثل في تلمس طريقة السلف في فهم النصوص والتعامل معها، والدعوة إلى التزامها، وبخاصة في مقابل المحدثات والبدع والانحرافات التي ظهرت في الأمة. فكلما أطلت فتنة بقرونها انبرى لها طائفة من العلماء لصدها ودحضها، وإرجاع الناس إلى فهم السلف، والتمسك بالأمر الأول، وعليه فكلُّ حركة إصلاحية تعمل على عودة الناس إلى منهج السلف الصالح والقرون الفاضلة التي زكاها النبي ﷺ هي حركة «سلفية» بهذا المعنى.

وهذه إشارة إلى جملة من الأهواء والبدع التي أدت إلى الافتراق وخروج طائفة من المنتسبين إلى الإسلام عن منهج السلف الصالح، وجادة جماعة المسلمين، وجهود أهل العلم في التصدي لها:

- فحينما ظهرت بدعة الخوارج وتكفير المسلمين، واستحلال دمائهم: نهض السلف للتصدي لها بدحض شبهاتهم ورد غلوائهم، كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما في مناظرتهم، وبردّ اعتدائهم وكفّ شرهم بقوة السيف كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه والصحابة معه.

- ولما وقعت فتنة القدرية وإنكار القدر، والقدرح في كمال علم الله، وشمول مشيئته وعموم خلقه لجميع الكائنات: تصدّى لها من عاصرها

من الصحابة كابن عمر رضي الله عنهما، وقال لمن سأله عنهم: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»^(١)، ثم أنكرها التابعون والأئمة بعد ذلك.

- وحين وقعت الجرأة في الكذب على رسول الله ﷺ، اعتنى السلفُ بتمحيص الصحيح من الضعيف والموضوع من المنسوب للنبي ﷺ، قال ابن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»^(٢).

- ولما ظهرت بدعةُ الجهمية وإنكار الصفات قام العلماء ببيان بطلانها، والرد على القائمين بها، وكذلك فتنة خلق القرآن، وقف لها أهل العلم، وبينوا أنه قول مبتدع محدث لا سلف له، واشتهر في ذلك موقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

- وعندما ظهرت المعتزلة وتأثرت بمناهج العلوم المترجمة عن اليونان، وخالفت منهج السلف في التعامل مع النصوص وتعظيمها، وتبنت محاكمة النصوص الشرعية إلى العقول (أو ما سمي تاريخياً بتقديم

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦، برقم ٨).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/١٥).

العقل على النقل)، ضمن انحرافات أخرى، تجلّى منهج السلف في توضيح موقع العقل من الوحي، وأنه لا تعارض بين النقل الصحيح مع العقل الصريح، فهذا شرعه، وهذا خلقه، ولا يمكن أن يخلق ما يعارض وحيه ودينه.

- ولما فشا في الأمة تقديس الصالحين، والتعلّق بالأموال والغائبين، والذبح عند الأضرحة، والسجود لها: بيّن العلماء خطورة هذه المعتقدات والأفعال على التوحيد، وكيف أنهم بذلك حادوا عن منهج السلف وشابهوا أفعال المشركين وأهل الملل الأخرى.

- ولما ظهرت بدعة الإرجاء، وقصر الإيمان على ما في القلب، وإخراج العمل عن مسمى الإيمان، نافح أتباع السلف عما دلّت عليه أدلة الكتاب السنة من أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

- ولما انتشرت المذاهب الفقهية ونفع الله بها، ثم جاء من يتعصب لها، وجعل الحقّ محصوراً في مذهبه، ووقع التنقّص لبقية المذاهب، ووقعت النزاعات بين اتباع المذاهب في المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الخلاف، وصار كثيرون منهم يحاول إلزام الآخرين بأقوال مذهبه، وظهرت الدعوة إلى الجمود عليها وإغلاق باب الاجتهاد: دعا أرباب الفقه والإصلاح، وأتباع التمسك بالسنة ومنهج السلف إلى إبقاء باب الاجتهاد والتجديد مفتوحاً بضوابطه الشرعية المعتبرة؛ لكثرة النوازل،

وتعدد المستجدات التي تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي، وبيان عموم الشريعة وشمولها واستيعابها لحاجات الناس.

- ولما ظهر مذهب الظاهرية في الفقه، الذي لا ينظر إلى علل الأحكام ولا مقاصدها، بل يقف عند حروفها ورسومها، يبين أهل العلم والسنة ثبوت القياس في الشريعة، وأصلوا لنظرية المقاصد الشرعية، وقاعدة الموازنات بين المصالح والمفاسد.

وهكذا، لم تكن الدعوة إلى منهج السلف في كل عصر إلا دعوة الإصلاح ومواجهة الانحرافات والأفهام الدخيلة والمغلوطة على الدين. ومن هنا كان الارتباط الوثيق والتبادل بين مصطلحي «الرجوع إلى فهم السلف» و«الإصلاح والتجديد»، وكان المنتسبون للسلف الصالح في الأغلب من الداعين للتجديد في الدين، وردّ (تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين).

فمن خلال هذا العرض يتضح أنّ «السلفية» منهجٌ في التعامل مع النصوص، والتمسك بالثوابت، والمحافظة على صفاء الإسلام من منابعه الأصيلة، فليست السلفية فرقةً مستقلة عن عموم المسلمين، أو حزباً منشقاً عنهم، أو مذهباً معيناً يخالف ما استقر عليه عملهم من المذاهب الأربعة، أو جماعة منسوبة لشخص معين، أو حكرًا عليه.

كما لا تعني مصطلحاً محددًا في جانب معيّن من الدين، أو مسائل

محصورة يجب على الشخص أن يتبعها، فقد يتبنى من ينتسب إلى هذا المنهج اختيارات فقهية في بعض المسائل، ويكون لغيره في الزمان أو المكان اختيارات أخرى، كما قد يختلف المنتسبون إلى منهج السلف في فهم بعض القضايا أو التعاطي مع النوازل، بل قد ينتسب أو يُنسب إلى منهج السلف من يخالف أصوله وقواعده. فيقع بسبب ذلك الخلط والخطأ في فهم السلفية والتعامل معها والتعاطي مع المنتسبين إليها .

«ولو سألت أيَّ مسلم: هل أنت سنِّي أو شيعي أو حنفي أو شافعي؟ فسيجيبك فوراً بلا أو نعم؛ لأنَّ معاني هذه المصطلحات محددة وواضحة في الدلالة على معانيها. ولكن لو سألته: هل أنت سلفي؟ فلن يستطيع أن يجيبك بلا أو نعم حتى يسألك بدوره: ماذا تعني بسلفي؟ السبب أن هذا المصطلح ليس له مفهوم محدد، وفي كثير من الأحيان يكون مضللاً، يمكن أن يستعمل هذا المصطلح في مجال الادعاء أو مجال الاتهام. يحدث أن يدعي أناس مختلفون في الاتجاه أو متناقضون في التفكير بأنهم سلفيون كما يحدث أن يوصف أناس مختلفون في الاتجاه أو متناقضون في الفكر أنهم سلفيون.

إنَّ المعنى اللغوي للسلفي، يعني المنسوب للسلف، وهم الأشخاص السابقون، في المصطلح الإسلامي صحابة الرسول ﷺ وتابعوهم ومن سار على منهجهم وطريقتهم. فإذا كان المقصود بالسلفي من يعتبر القرآن

والحديث المصدرين الأساسيين للإسلام، ويرى أنه لا يجوز رفض أي أمرٍ يقرره القرآن أو الحديث الصحيح، ويحترم الصحابة ويраهم أهلاً للاقتداء باعتبار أنهم هم الذين طبقوا الإسلام على الوجه الصحيح، فالغالب أن أي مسلم سني متعلم يعتبر سلفياً بهذا المعنى، وإن لم يسم نفسه سلفياً.

وإذا كان المقصود بالسلفي من يسلم بالمعنى الأول وبالإضافة إليه يرفض تقديس القبور والاعتقاد بوجود قدرات ميتافيزيكية للصالحين سواء من الأحياء أو الأموات، ويرفض أي طقوس عبادية تضاف إلى العبادات الموجودة في وقت الرسول والصحابة، فإن عدداً أقل من عامة المسلمين سيُدعى بأنه سلفي.

وإذا كان المقصود من يسلم بالمعنى الثاني ولكن يضيف إليه أنه مع الانتساب إلى أحد المذاهب الفقهية يمكن الاجتهاد واختيار رأي فقهي من أحد المذاهب الأخرى، كما يرى رفض بعض الميتافيزيكيات التي يعدها خرافات وأوهاماً (مثل تعليق التائم، واعتقاد أن بعض الأيام أيام نحس وبعضها أيام سعد) فإن عدداً قليلاً بالنسبة لعامة المسلمين (هم من المتعلمين غالباً) سيُدعى بأنه سلفي.

وفي الجدل اللاهوتي في الماضي وجدت فرق إسلامية تؤول صفات الله في القرآن والحديث أو بعضها بمعان تبعتها عن ظاهرها تفادياً

لتشبيه الله بال مخلوق، وإلى جانبهم وجدت طائفةً تنكر تأويل الصفات المنسوبة إلى الله في القرآن والحديث وترى إقرارها على ظاهرها مع تنزيه الله عن تشبيه صفاته بصفات المخلوقين، وتسمي هذه الطائفة نفسها بالسلفيين»^(١).



(١) ينظر: الأقليات المسلمة في مواجهة فوييا الإسلام، ص (٤١) باختصار وتصرف.

ثانيًا

معالم منهج السلف

كانت القرون المفضلة الثلاثة هي التطبيق الأمثل للإسلام، على تفاوت بينها في الفضل، ثم ظهرت الانحرافات والمخالفات، وكلما ظهر انحراف انبرى له أهل العلم في عصره يردون الناس إلى الأمر الأول، ويصلحون ما أفسد الناس، ويمكن اعتبار هذه الجهود «الإصلاحية» معالم منهج السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة الإسلام السائرين على طريقهم، ونلخصها فيما يلي:

ويمكن تلخيص أهم معالم منهج الدعوة إلى اتباع ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأئمة الإسلام السائرين على طريقتهم فيما يلي:

١- الرجوع إلى الكتاب والسنة، واعتبارهما الأصل الذي يجب على كل مسلم أن يتحاكم إليه:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ صِلًا مُمِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]. والردُّ إلى الله تعالى يكون بالرجوع إلى كتابه، والردُّ إلى الرسول ﷺ

يكون بالرجوع إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

٢- اعتبار السنة النبوية الصحيحة أصلاً من أصول التشريع، والاحتجاج بها على الأحكام الشرعية بأنواعها:

فالسنة النبوية وحْيٌ من الله تعالى، كما قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)^(١) من حديث المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه، ولا يكون الامتثال لشرع الله إلا بالأخذ بسنة الرسول والرد إليها، وطاعته في حياته وبعد وفاته، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

٣- الاهتمام بالأحاديث النبوية وروايتها، وتدوينها والعناية بأسانيدها، وتمييز صحيحها من سقيمها:

وقد ابتكر علماء الإسلام لتحقيق هذه الغاية علماً يعدّ مفخرة من مفاخر هذه الأمة التي تميزت بها عن غيرها من الأمم، وهو علم الرواية والإسناد وما يتبعها من علوم ومعارف كمصطلح الحديث، وعلم الرجال، والجرح والتعديل، والعلل، وكل ذلك بهدف التحري في ثبوت الأحاديث، وتمييز المرويات، وعملاً بالأحاديث التي حذرت من الكذب على رسول الله ﷺ، كالحديث المتواتر (من كذب علي متعمداً

(١) أخرجه أبو داود (٧/١٣)، برقم (٤٦٠٤).

فليتبوأ مقعده من النار) متفق عليه^(١). وسبق قول ابن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُوا النار جالكُم».

٤ - العناية بآثار الصحابة والتابعين، وتتبعها، وتقديم فهم الصحابة والتابعين للنصوص الشرعية على فهم من بعدهم ممن يخالفه:

انطلاقاً من توجيه النبي ﷺ في بيان طريق الخروج من الاختلاف الواقع في بقوله: (ما أنا عليه وأصحابي)، وبناءً على خيريتهم الواردة في حديث: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) متفق عليه^(٢).

٥ - حصر مصادر تلقي العقيدة في نصوص الوحي المعصوم كتاباً وسنةً: فالعقيدة محلُّها بالغيبيات، والعلم بالغيب لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الوحي المعصوم، والتسليم بكون القرآن والسنة وحياً من الله يقتضي بالضرورة التسليم والإيمان بما جاء فيهما من عقائد وتصورات كما جاءت، دون إخضاعها للآراء العقلية، والافتراضات المنطقية، والمسالك الفلسفية، والمذاهب الكلامية المخالفة لما كان عليه الصدر الأول.

(١) أخرجه البخاري (٣٣/١)، برقم (١١٠)، ومسلم (١٠/١)، برقم (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٧١/٣)، برقم (٢٦٥٢)، ومسلم (٤/١٩٦٣)، برقم (٢٥٣٣).

٦- عدم معارضة النصوص الشرعية بالعقول والآراء وغيرها:

فالنص الصحيح لا يمكن أن يناقض العقل الصريح، لكن أفهام الناس وعقولهم متفاوتة، وما يصدر عنها من أفكار وتصورات متباينة، وقد تكون متعارضة أو فاسدة، فلو كان العقل حاكمًا على النص لأبطلت النصوص بعقولنا، ولو كان الناس يستقلون بعقولهم في إدراك المطالب الدينية، ومعرفة العقائد لما كان لنصوص الوحي كبير فائدة، ولا يخفى ما في ذلك من إزراء وتنقّص للنصوص، وترك التعظيم الواجب لها، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

٧- عدم التبعيد لله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، فلا يُعبد الله سبحانه إلا بشرعه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ:

فالشريعة جاءت لتدلّ الناس على الطريقة التي يرضيها الرب سبحانه في التقرب إليه، فليس لأحد أن يعبد الله كما يريد ويرغب هو، بل عليه أن يعبد الله على ما يحبه الله ويرضاه، وهو ما شرعه على لسان النبي ﷺ، ولهذا قال ﷺ في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ) متفق عليه^(١)، وفي رواية لمسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رَدٌّ).

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٨٤، برقم ٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣، برقم ١٧١٨).

٨- العصمة للأنبياء فيما يبلغون عن ربهم دون غيرهم من سائر الناس: فالصالحون والأولياء ليسوا معصومين ولا يتلقون الوحي كالأنبياء، مع الإيمان بكرامات الصالحين والأولياء وما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات تشيئاً لهم، وتقوية لقلوبهم، وإظهاراً لمنزلتهم دون اختيار منهم أو ادعاء.

٩- التجديد والاجتهاد بضوابطه الشرعية:

لأنَّ الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة إلى يوم القيامة، وهذا يقتضي أن تكون مستوعبة لجميع ما يقع للناس من وقائع ومستجدات، وهو ما يستلزم الاجتهاد الدائم والمستمر من أهل العلم في بيان الأحكام الشرعية، ومعالجة نوازلهم، غير أنَّ الاجتهاد لا يسوغ إلا لمن حصّل أدوات الاجتهاد، وشهد له أهل الاختصاص بالعلم والفهم، قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئة سنة من يجدد لها دينها)^(١).

١٠- الحفاظ على جماعة المسلمين ووحدة كلمتهم:

حث الإسلام على وحدة الكلمة، وأمر المسلمين بالاجتماع، ونبذ الفرقة والاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال ﷺ: (لا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٩/٦)، برقم (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

اختلفوا، فهلكوا) (١). فالخير في اجتماع الكلمة، ووحدة الصف حتى مع الأخذ بالقول المرجوح، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الخلاف شر) (٢)، وقال علي رضي الله عنه: (اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف، حتى يكون الناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي) (٣).

وجاءت الأحاديث بالأمر بلزوم جماعة المسلمين عند الاختلاف، وقد سأل حذيفة رضي الله عنه عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن تصرف المؤمن عند الفتن قائلاً: (فما تأمري إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم) متفق عليه (٤). وقال البخاري: «أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم» (٥).

١١ - التزكية والأخلاق:

من أهم ما تميزت به رسالة الإسلام الحرص على الأخلاق والدعوة إليها، فجاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مكملة لما في المجتمع من أخلاق، وداعية إلى تصحيح ما اعوجج منها، وإحياء ما اندثر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(١) أخرجه البخاري (٣/١٢٠، برقم ٢٤١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٣٢٨، برقم ١٩٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥/١٩، برقم ٣٧٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤/١٩٩، برقم ٣٦٠٦)، ومسلم (٣/١٤٧٥، برقم ١٨٤٧).

(٥) صحيح البخاري (٩/١٠٧).

رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)^(١).
وقد ربى الرسول ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق وفضائلها،
وحرص على تهذيب نفوسهم وتزكيتها، وعلى هذا سار التابعون ومن
اقتفى أثرهم، حتى زخرت مصنفات أهل العلم وكتبهم في سائر العلوم
بقدر كبير من الاهتمام بالأخلاق والسلوك، بل أفردوا مؤلفات خاصة
في تزكية النفوس وتقويم السلوك، وحرصوا عملياً على تربية طلابهم
عليها، وبثها في مجتمعاتهم، بل وتقديم ذلك على طلب العلم والتضلع
منه.

قال ابن سيرين: «كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم»^(٢)، وقال
عبدالله بن المبارك: «طلبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين
سنة، وكانوا يطلبون الأدب قبل العلم»^(٣).

ولأجل ذلك وضعوا المؤلفات الكثيرة، وعقدوا الدروس، وألقوا
الخطب في بيان ما ينبغي أن يزكي به المسلم نفسه عموماً، وطالب العلم
خصوصاً، بل ضمنوها كتب العقيدة لشدة الاهتمام بها.

قال أبو بكر الإسماعيلي (ت ٣٧١هـ) في اعتقاد أهل السنة: «يرون مجانية

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤/٥١٣، برقم ١٩٥٢).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٧٩).

(٣) ذكره ابن الجزري في غاية النهاية (١/٤٤٦).

البدعة والآثام والفخر والتكبر، ويرون كفاً الأذى وترك الغيبة»^(١).
 وعند الاستعراض ستطالعك عشرات بل مئات الكتب التي تربي في طالب العلم الأدب والتواضع وحسن الخلق، مثل (أدب العالم والمتعلم، وأدب الطلب، وحلية طالب العلم، وأدب المفتي والمستفتي،...).
 وإن أول ما يفقده طالب العلم من أدبه عدم احترام شيوخه والتقليل من شأنهم، مما يدفعه للتكبر عليهم وعدم الأخذ بهديهم، واقتحام العلم إعجاباً بالنفس، واغتراراً بما حصله، مما يؤدي للانحراف عن الحق، ومخالفة الهدى المستقيم، والطريق القويم.

إذاً: مَنْ هو السلفي؟

من خلال ما سبق يتضح أن لفظ «السلفي» إنما يُطلق على مَنْ يبذل وسعه في اتباع الأصول الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة فعلاً وقولاً، ويُعنى بطريق علماء الأمة الراسخين من الصحابة والتابعين ومَنْ سار على نهجهم ممن جاء بعدهم، وبقدر تحقيق الشخص لذلك يكون «سلفياً» ولو لم يسم نفسه بهذا الاسم، فالعبرة بالحقائق والوقائع، لا بالدعاوى والتشبع بما ليس فيه.

ومَنْ خالف هذا المنهج، وتلك المعالم والضوابط فليس على منهج

(١) اعتقاد أئمة الحديث ص (٧٨).

السلف ولو تسمى بذلك، أو قيل عنه سلفي.. ولهذا يدخل في الانتساب لهذا المنهج الصدق والكذب، والموافقة والمخالفة الكلية أو الجزئية، فقد يكون موافقاً لمنهج السلف في تعظيم نصوص الشريعة لكن يخالفه في السلوك والتعامل مع الخلق، أو يوافقه في مسائل ويكون منحرفاً عنه في مسائل وأبواب أخرى، وقد تغلب عليه الموافقة أو المخالفة، ولكن المخالف للسلف في بعض أصولهم وإن وافقهم في غيرها لا يُنسب إليهم عند الإطلاق، ولا يحسب منهم عند الإجمال.



ثالثاً

السلفية عبر التاريخ

من خلال العرض السابق يتضح أنّ السلفية لم تظهر بشكل مفاجئ، أو نشأت بعد أن لم تكن في الأمة، بل هي استمرارٌ لما كان عليه دأب السلف والأئمة من نشر الإسلام النقي، والرد على ما يُنسب للدين من انحراف وتحريف وأخطاء، وقد اشتهر عددٌ كبير من العلماء الذين ساروا على هذا المنهج منذ صدر الإسلام مروراً بالقرون المتتابعة إلى يومنا هذا. وهذه إشارةٌ موجزة، وأمثلة مختصرة لجملة من مواقف أهل العلم الذين حملوا لواء نشر الدين وتعليمه، والوقوف في وجه البدع والانحرافات:

- فمن الصحابة: موقف الخليفة أبي بكر رضي الله عنه من المرتدين عن الدين ومدّعي النبوية، ومانعي الزكاة، وموقف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل في الخوض في متشابهات القرآن، وموقف عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه مع المتحلّقين للذكر في بعض مساجد الكوفة على هيئة لم تكن في زمن النبي صلى الله عليه وآله، وموقف عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما من القدرية كما في أول صحيح مسلم، وموقفه مع جماعة ممن أثاروا الفتنة على الخليفة عثمان رضي الله عنه، وموقف الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الخوارج والسبئية.

- ومن التابعين: تصدي الأئمة مجاهد وعمر بن عبد العزيز رحمهم الله للقدرية، ولدى ظهور المعتزلة والجهمية قيّض الله لهم الزُّهري والحسن

البصري والجمع الغفير من التابعين رحمهم الله .

- ومن أتباع التابعين ومن بعدهم : تصدي الأئمة أبي حنيفة ومالك بن أنس وابن المبارك والشافعي رحمهم الله تعالى للجهمية، وقد ألف الإمام مالك الموطأ خوفاً من الجهمية الذين يُغيرون دين الله كما نُقل عنه، وردّ عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله على المجسمة والمشبهة، وللإمام أبي حنيفة صولاته مع الجهمية والزنادقة والملاحدة، وألف الإمام الشافعي رسالته في أصول الفقه لحفظ الدين في طرق الاستنباط والتعامل مع النصوص الشرعية بعد أن انتشرت المخالفات والانحرافات في ردّ بعضها أو التشكيك في حجّيتها ودالاتها على الأحكام .

ولما احتشدت حشود أهل الأهواء من الجهمية والمعتزلة زمن المأمون واستعانوا بقوة السلطان في فرض بدعتهم قيّض الله لهم كثيراً من أهل العلم فوقفوا في وجه طغيانهم ، وكان من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل الذي كان له موقف مشهور في فتنه خلق القرآن، فلُقّب بعدها بـ «ناصر السنة»، وصار اتباع ما كان عليه الإمام أحمد معلماً من معالم هذا المنهج حتى قال الإمام أبو الحسن الأشعري^(١): «فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

(١) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة ص (٢٠).

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبها كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمامٍ مقدّم، وجليلٍ معظّم، وكبيرٍ مفهّم».

وازداد انتشار مصطلح السلف والسلفية إلى جانب مصطلحات أهل الحديث والأثر والسنة^(١) في مقابل الخلف وأهل البدعة.

ولم يكن الإمام أحمد مختلفاً عن الأئمة الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين في هذا المنهج والمعتقد؛ فالأئمة الأربعة من أئمة السلف، لكن لاشتهار موقفه ذلك ذاع صيته وانتشر، ومن ثم وقع الخلط عند العديد من الباحثين بين السلفية والحنبلية، مع أن العديد من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى

(١) ساهم الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين ص (٧٠) بأهل الحديث والسنة، ومما نقله من قولهم وعقيدتهم: «ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ويأخذون بفضائلهم...، ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين، وأن لا يبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله...، ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة...». ثم قال بعد أن نقل مذهبهم وعقيدتهم: «وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب».

كانوا على منهج السلف، وفي المقابل فعددٌ من الحنابلة لا يعدهم الكثير من الباحثين من السلفيين.

وينبغي أن يُعلم أن الذين ساروا على هذا المنهج ليسوا قلةً أو أعداداً محدودة أو جماعةً شاذة، بل هم أعلام الأمة، وأئمة السنة، وقد عدَّ الإمام أبو القاسم الطبري اللالكائي (ت ٤١٨ هـ) أسماء العلماء الذين وُصفوا بالإمامة في السنة واتباع ما كان عليه السلف منذ صدر الإسلام إلى زمنه في أوائل القرن الخامس الهجري فبلغوا (١٩١) عالماً ذكرهم بأسمائهم من جميع البلاد والأمصار^(١)، وحينما ذكر فتنة خلق القرآن، وإنكار الأئمة لهذه البدعة عدَّ الذين أنكروها من العلماء والفقهاء فزادوا على الخمسمئة، وختم ذلك بقوله: «فهؤلاء خمسمئة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين واتباع التابعين، والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار، ومضي السنين والأعوام، وفيهم نحو من مئة إمام ممن أخذ الناس بقولهم، وتدينوا بمذاهبهم، ولو اشتغلت بنقل أقوال المحدثين بلغت أسماؤهم ألوفاً كثيرة لكني اختصرت..»^(٢).

ومن العلماء الذين جاؤوا بعد اللالكائي في القرن الخامس ممن سار على منهج السلف، ولزوم الأثر: أبو عثمان إسماعيل الصابوني الشافعي

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٣١-٥٤).

(٢) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٣٤٤).

(ت ٤٤٩ هـ)، وأبو عمر بن عبد البر المالكي (ت ٤٦٣ هـ) حافظ المغرب، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) إمام المشرق في الحديث، وأبو المظفر الإسفراييني (ت ٤٧١ هـ)، وأبو علي الحسن بن أحمد ابن البنا الحنبلي (ت ٤٧١ هـ)، وأبو الفتح نصر المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠ هـ).

وفي القرن السادس: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي المالكي (المتوفى: ٥٢٠ هـ)، وأبو الحسن ابن الزاغوني الحنبلي (ت ٥٢٧ هـ)، والإمام عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ)، وأبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي (ت ٥٥٨ هـ)، وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٠٠ هـ).

وفي القرن السابع: ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، وعباس بن منصور السكسكي الشافعي (ت ٦٨ هـ)، وأحمد بن حمدان النميري (ت ٦٩٥ هـ).

ثم تتالى العلماء والدعاة الحاملون للواء منهج السلف، ولعل من أبرزهم في القرن الثامن الشيخ أحمد عبد الحلیم المعروف بابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، والذي يُعد من أعلام هذه المدرسة، والعديد من مشاهير أهل العلم كانوا من تلامذته أو ممن تأثر به، كالإمام ابن قيم الجوزية، والإمام الحافظ المزري، والإمام الحافظ الذهبي، والإمام الحافظ ابن كثير رحمهم

الله جميعاً، وغيرهم كثير.

وهكذا وجد العلماء الأعلام الداعون لاتباع مذهب السلف في القرون التالية حتى عصرنا الحاضر.

السلفية في العصر الحالي:

بعد الاتفاق على الأصول الشرعية والمعالَم المنهجية للطريقة السلفية: تباينت أفهام ومواقف المنتسبين إلى هذا المنهج، واختلفت اجتهاداتهم في قضايا متعددة، وهذا أمر طبيعي وموجود في شتى المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية والكلامية، ولا يستدعي تسميات خاصة، أو تقسيمات معينة.

فالفروق بين هذه المدارس ليست فروقا حدية أو مفصلية، والحدود الفاصلة بينها لا يمكن رسمها بسهولة، بل هي متداخلة، وتوجد صعوبة في تصنيف كثير من الشخصيات ضمن مدرسة محددة من تلك المدارس؛ لأنها قابلة لأن تدخل تحت أكثر من تصنيف منها، وهذا راجع إلى طبيعة الأعمال التي يمكن أن يقوم بها المشايخ والمصلحون، والظروف المحيطة

٠٣٦

وقد استمر هذا الأمر حتى جاء العصر الحالي والذي تداخلت فيه عدة عوامل أدت إلى ظهور تسميات وتصنيفات وأنواع للسلفية عند

الباحثين، ومن أهم هذه العوامل:

- العامل السياسي: والذي تمثل في ابتعاد الحكومات والأنظمة عن تطبيق الشريعة الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين عقب سقوط الخلافة العثمانية، فتأسست دول تنحي الشريعة عن أنظمتها وقوانينها، وتحارب الداعين إليها، وتبع ذلك انحرافات كبيرة في المجتمعات الإسلامية، مما جعل عددًا من الدعاة ينصرفون إلى التعامل مع الواقع ومعالجة الانحراف بالتخصص في مجال من مجالات الإصلاح، فمنهم من اتجه إلى التعليم، ومنهم من اتجه إلى البحث والتأليف، ومنهم من اتجه إلى الإصلاح السياسي وغير ذلك، واختار آخرون الابتعاد عن التعرض لمسائل الحكم والسياسة حماية للدعوة وطلابها من التضييق، فظهرت جماعات متخصصة بالدعوة: كالدعوة والتبليغ، وأخرى متخصصة بالتعليم والبحث: كالمدارس والجامعات الإسلامية في الهند، ومنها جماعات تتسبب للسلف بهذا المعنى^(١).

- ظهور الجماعات المعاصرة: فمع أن التجمعات والمدارس كانت موجودة في تاريخ العالم الإسلامي إلا أنها لم تكن بالشكل المعاصر، وذلك نتيجة عوامل عديدة، منها التطور الطبيعي عند البشر في التنظيم

(١) كما كان للدول والأنظمة أدوار سلبية في التفريق بين الجماعات وإثارة العداوة بينها كما سيأتي.

وإدارة الأعمال، سواء منها الدعوية، أو السياسية، أو التي تجمع بين أكثر من مسار في عملها.

وقد أثر هذا من جهتين:

الأول: تشجيع تأسيس جماعات وإعلان الأصول والأسس التي تقوم عليها، وتميزها عن غيرها، وربما أدى ذلك إلى المنافسة بينها أحياناً، والوقوع في بعض المخالفات الشرعية من التحزب وغمط دور الآخرين. الثاني: قيام الباحثين والدارسين بالتصنيف والتقسيم والتسمية -بحسن نية أو عدمها- لفهم خارطة الجماعات الإسلامية، فظهر الإلحاح على هذه التقسيمات والتمييز بينها.

وكانت العديد من الجماعات المنتسبة للسلفية ممن تأثر بذلك، فظهرت وانتشرت جماعات متعددة ترفع شعار السلفية في مقابل الجماعات الأخرى بما لم يكن في السابق.

- العامل الاستشراقي: فقد لعب الاستشراق دوراً خطيراً في دراساته عن العالم الإسلامي، وما بثه من معلومات وافتراءات، ساعدته عدة عوامل في انتشار تأثيره ذلك، ومن أهمها: الاستعمار الذي اتخذ من الدراسات الاستشراقية مرشداً له، والأنظمة التي قامت على أعقاب حقبة الاستعمار وأكملت سياسة سلخ المجتمعات عن دينها، مع سطوة الإعلام الغربي بكافة صورته، وتسخيرها للغزو الفكري.

ومن أخطر ما سعى إليه الاستشراق في هذا المجال: العمل على إشاعة التقسيمات والتصنيفات بين الجماعات والحركات الإسلامية، وإصاق الأوصاف والأحكام بها، مع الخلط والتشويه، ونشر ذلك في الإعلام وميادين البحث حتى أصبحت من المسلمات للمتحدثين فيها والسامعين لهم، وعلى سبيل المثال فقد اخترعوا مسمى (الإسلام السياسي) لوصم الجماعات التي تعمل في الميدان السياسي لنصرة الإسلام، وكانوا أول من أطلق على جماعات الغلاة اسم (الجماعات الإسلامية) و(السلفية الجهادية)، كما عملوا على تقديم مفاهيم مغلوطة للدين باسم التجديد والعصرانية والحداثة، ووسم كل ما خالفها بالتخلف والرجعية والأصولية والتشدد، وإطلاق اسم (السلفية) عليها جميعاً، بالرغم مع اختلاف انتماءاتها وتوجهاتها فيما بينها^(١).

وقد ظهر بسبب ذلك تقسيماتٌ للسلفية جعلت بمثابة المدارس السلفية المعاصرة، ومنها: السلفية العلمية، والسلفية الحركية، والسلفية الجهادية، والسلفية الإصلاحية، وغير ذلك، وقد يجري تقسيم هذه المدارس أيضاً إلى عدة اتجاهات أو جماعات.

(١) ومن مظاهر ذلك: ما تحويه تقارير مؤسسة «راند» حين الحديث عن الدعوة لإنشاء تيار إسلامي موالٍ للغرب، و«الراديكاليين» المعارضين لمشروعه، من وصفهم بـ«السلفيين»، مع أنها تجمع فيهم أصنافاً مختلفة من الانتماءات الفكرية والفقهية.

على أنّ هذه التقسيمات تبقى محلّ نظرٍ، وفي بعضها ما يُنتقد، كما أنّ نسبة بعضها للسلفية، وكذا التمثيل لها أو لأتباعها في الواقع لا يخلو من اعتراض.

ومما يبين عدم دقة هذه التصنيفات أنّ من عمل بالجهاد من هؤلاء العلماء أو الدعاة أو أفتى فيه أو سعى في مساعدة المجاهدين فإنه لا يسمى عند المصنّفين (جهادياً) ، وأنّ العديد من عمل في الشأن العام، أو اهتم بقضايا المسلمين يُصنّف علمياً لا حركياً، وأيضاً فالاهتمام العلمي والتأليف في المسائل العلمية مشترك بين معظم المنتسبين للسلفية.

وفي هذا السياق يمكن لمدرسة أن تجمع بين عدة تيارات وأعمال، كما يظهر ذلك في السلفية الشامية^(١):

فهي مدرسة تميزت بقدرتها على الدمج بين العلم والدعوة، وحملت على عاتقها الإصلاح المجتمعي بصورته الشاملة فكرياً وحضارياً عبر العودة لمنهج السلف الصالح وتفعيل أحكام الإسلام وأصوله، واضطلعت بحمل راية مقاومة المستعمر، واهتمت بالعمل السياسي الذي لم يرفض الأشكال الحديثة للدولة ومتطلباتها، ولا حتى التحالفات

(١) ومثل ذلك يقال عن مدارس سلفية رائدة في الإصلاح ظهرت في العراق ومصر والعديد من بلدان المغرب العربي، وبلدان المشرق الإسلامي، وغيرها، وكانت لهم آثار علمية وعملية وجهادية عظيمة، يقصر هذا المقام بتتبع روادها وآثارها.

السياسية مع أصحاب التيارات الأخرى - رغم اختلاف المعتقد والمرجعية الفكرية والدينية- ومارست نشاطها السياسي عبر الجمعيات والأحزاب والمؤتمرات، وانخرطت في الحياة السياسية وأساليبها المعاصرة كالانتخابات والتحالفات والأحزاب، من غير تحفظات أو موانع عميقة، انطلاقاً من تغليب المصلحة العامة، وإمكانية الاشتراك مع الآخرين في أسس جامعة ولو في حدّها الأدنى. وهي مدرسة ممتدة زمانياً في بلاد الشام من القرون السابقة مروراً بما بعد سقوط الدولة العثمانية ووصولاً إلى يومنا هذا.

وقد كان من أبرز رواد حركتها الإصلاحية: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ طاهر الجزائري مؤسس مكتبة الظاهرية، والشيخ عز الدين القسام الذي انتقل إلى فلسطين وقاد حركة إصلاحية جهادية، والشيخ كامل القصاب، والشيخ محمد بهجت البيطار والشيخ محمد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، وغيرهم، رحمهم الله أجمعين.

رابعاً

النماذج المشوهة للسلفية

المدرسة السلفية - كشأن جميع المبادئ والمدارس الفكرية والدينية - يمكن أن ينتسب أو يُنسب إليها مَنْ يخالف أصولها ومبادئها، وقد يكون هذا المنتسب على قدرٍ من الانحراف والبعد عن مبادئ تلك المدرسة فلا يكون حينئذٍ من الموضوعي أن تُلزم المدرسة أو يُحاسب التيار على تصرفات الاتجاه المخالف، فضلاً عن أن يعتبر هذا المنحرف هو الممثل الشرعي لتلك المدرسة، أو تُفهم المدرسة ويُحكم عليها من خلال تصرفات وأفراد ذلك الاتجاه. وهذا يشبه ما مارسه كثير من المستشرقين، ويمارسه كثير من الإعلاميين اليوم من الحكم على الإسلام من خلال التصرفات المشوهة لبعض المنتسبين إليه، أو التيارات المخالفة لمبادئه وأحكامه. وفيما يلي نموذجان من النماذج المشوهة التي نُسبت للسلفية:

١ - جماعات الغلاة :

ظهر الغلاة على شكل جماعات تعتمد تكفير الحكومات والأنظمة في الدول الإسلامية، حتى وصل كثير منهم إلى تكفير الموظفين في تلك الحكومات، بل وعامة المجتمعات، وحمل السلاح عليها، واعتبار ذلك سبيلاً وحيداً للتغيير والإصلاح، كما يحكمون على الجماعات الإسلامية العاملة في خدمة الدين وإصلاح المسلمين ومجتمعاتهم في شتى الميادين بالردة والعمالة، أو الانحراف الشديد في أحسن التقديرات، وكثير منهم يستهدفها بعملياته الإجرامية.

وتعود نشأتهم إلى بدايات القرن الماضي في مصر، حين تشكلت مجموعات تهدف إلى قلب أنظمة الحكم في العالم العربي، كما امتد ظهورهم إلى الجزائر الذي شكل نقلة نوعية لهذه التنظيمات، ثم أفغانستان، ثم العراق، والصومال، وأخيراً سوريا.

وتعد مرحلة الجهاد في أفغانستان إحدى أهم محطات تشكل هذه الجماعات، حيث اختلطت جماعات الغلاة المختلفة، واخترقتها شخصيات استخباراتية عديدة.

ويمثل تنظيم القاعدة بفروعه المختلفة مرحلة مهمة في تاريخ هذه الجماعات وتحولاتها، كما يعد تنظيم داعش النسخة الأكثر تطوراً منها. والجزء الفكري الرئيس للغلو في العصر الحديث هو مسألة (الحاكمية)، وهو مصطلح جديد نشأ بغرض إيقاظ الحس الإسلامي لمواجهة الهجمة الشرسة من الاستعمار والغزو الفكري، والتي نتج عنها تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم وواقع الناس في معظم الدول الإسلامية، فكانت الشكاية الكبرى لبعض التيارات الإسلامية هي الحكم بغير ما أنزل الله، مع ما اقترن بذلك من فهم خاطئ للحاكمية، ويمكن تصوير أثر الحاكمية في الغلو بما يلي: ظهر الحكم بغير ما أنزل الله، وسيطر على معظم بلاد الإسلام، فأنتج ذلك إدانة لها ودعوة إلى الحكم بما أنزل الله، فلما لم يستجب لتلك الدعوات أنتجت رد فعل يدين الحاكم

بغير ما أنزل الله، ويكفره، ثم جاءت تبعاً لتكفير الحاكم مجالات الغلو الأخرى^(١).

«وساعد على ذلك الجوّ الخائِقُ الذي كانت تعيشه الحركةُ الإسلامية، ورجاؤها ودعاتها الذين نُصِبَتْ لهم المشائِقُ جهرةً، أو قُتِلوا بأدوات التعذيب خُفيةً، أو صُبَّتْ عليهم ألوان التَّنكيل والتَّشريد من كلِّ جهة، في حين فُتِحَت الأبواب أمام الشُّوعيين والعلمانيين وكلِّ خصوم الإسلام»^(٢).

ثمَّ تطوَّر فكرُ الغلو في التَّكفير، وقطع مراحلٌ متعددة، وسلك أكثر من اتجاه، وأفرز جماعاتٍ تختلف في بعض تصوراتها، وفي قدر ما تحمله من غلو وانحراف.

وتعود أفكار هذه الجماعات إلى خليط من أفكار التَّكفير والقتل، والفتاوى الشاذة في مختلف ميادين الحياة الدعوية، والعلمية، والجهادية، والسياسية، أسهم في تطويرها وبلورتها أفكار دخيلة على الإسلام كالثورية الماركسية، وشخصيات مشبوهة لم تعرف بعلم ولا دعوة، بل رأس العديد منها شخصيات يشتهه بارتابها بأنظمة استخباراتية.

وقد حاولت هذه الجماعات على طيلة سنوات نشأتها البحث عن

(١) ينظر: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة ص (١٠٥-١٠٨).

(٢) أولويات الحركة الإسلامية للشيخ القرضاوي ص (٤١).

مشروعية لها في أقوال أهل العلم وشخصياتهم، فتنقلت بين العديد من المدارس والأفكار، واستشهدت بأقوال مفكرها ومشايخها. وكان من أبرز ما انتسبت إليه هذه الجماعات أقوال وفتاوى شخصيات سلفية معاصرة وقديمة، بعد انتزاع أقوالهم وفتاواهم من سياقها، فكانت النسبة المضللة للسلفية باسم (السلفية الجهادية).
علماً أن من أهم وأول المؤلفات والمواقف في الرد على هؤلاء والتصدي لهم كان من الجماعات والشخصيات السلفية في العالم الإسلامي^(١).

٢- جماعات الولاية:

وقد اشتهروا في الأوساط الثقافية باسم (المدخلية) نسبة إلى أحد (١) كمؤلفات الشيخ محمد سرور زين العابدين في سلسلة الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، ككتاب: (جماعة المسلمين) و(التوقف والتبين)، و(خوارج العصر)، إضافة إلى عدد من المقالات المهمة في مجلة السنة. ومؤلفات الدكتور عبد الرحمن اللويحي، ككتاب (مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر).
ومجموعة دراسات وبحوث وفتاوى هيئة الشام الإسلامية تناولت ما تثيره جماعات الغلو من مسائل وشبهات، ومنها:
١- كتاب فتاوى هيئة الشام الإسلامية

<http://islamicsham.org/versions/796>.

٢- كتاب: شبهات تنظيم الدولة وأنصاره والرد عليها،

<http://islamicsham.org/versions/2352>.

٣- تصور الغلاة لمفهوم الدولة في الإسلام، من جماعات الجهاد المصرية إلى القاعدة
<http://alabasirah.com/node/732>.

أبرز شيوخهم ربيع بن هادي المدخلي المدرس بالجامعة الإسلامية (ولد بالسعودية ١٩٣٢ م). كما يطلق عليهم أيضاً (الجامية) نسبة إلى محمد أمان الجامي (١٩٣١-١٩٩٦ م) الإثيوبي الأصل، وهو شيخ ربيع المدخلي. ولعل جذور نشأة هذا التيار في السعودية كانت ردة فعل على حركة جهيمان العتيبي في احتلال المسجد الحرام بمكة المكرمة بدعوى خروج المهدي، لكن انتشارها وتوظيفها كان مع بداية تسعينيات القرن الماضي وتمدد إلى دول أخرى، ليوجد لها اليوم فروع في معظم دول العالم التي يوجد فيها مسلمون.

وأهم ما يميز هذا التيار عن غيره، ويقوم عليه في منهجه أمران:

١- الولاء المطلق للسلطة الحاكمة والطاعة الكاملة للحكام، والدفاع عن مواقفهم وسياساتهم مهما كانت، وتبريرها شرعاً - ومن هنا جاء تسميتهم بجماعات الولاية- وإضفاء هالة من القداسة على الحكومات وشخصياتها، إلى حد اعتبار أي رأي مخالف للسلطة خروجاً على الشرع وإثارة للفتنة، حتى ولو عدّه غيرها من العلماء نوعاً من إنكار المنكر، ونصحاً لولي الأمر.

٢- الهجوم المستمر والعنيف الذي يصل إلى التفسير والتبديع والتضليل لمختلف الحركات والتيارات الإسلامية، إلى درجة التعاون الفكري والأمني مع الحكومات ضدهم، وتحريضها على البطش بهم،

وتأصيل ذلك شرعاً ودينياً، وقد يكون ذلك التنسيق مع حكومات غير إسلامية.

وإبان حرب الخليج الثانية بداية تسعينيات القرن الماضي، وقف هذا التيار في مواجهة التيار الإسلامي الرفض لفكرة الاستعانة بالولايات المتحدة لإخراج القوات العراقية من الكويت، انطلاقاً من نصوص حديثة، ومذاهب فقهية تتجه إلى منع «الاستعانة بغير المسلم لقتال المسلم».

فوجد في هذا التيار ما يمكن أن يُواجه به التيار الإسلامي الإصلاحي الذي خطف الأضواء، وجذب الأتباع، فدُعم هذا الاتجاه، ومُوّل وعُمل على تمكينه في عدد من المؤسسات العلمية والدعوية، وتصديره إلى دول أخرى، فانتشر في بلدان عربية وإسلامية أخرى من بينها ليبيا، والجزائر، وبشكل ملحوظ في مصر، وقد ظهرت مواقف هذا التيار جلية في اتخاذ قياداته قراراً بموالاتة حكام تلك الدول بإطلاق، والوقوف ضد الحركات الشعبية ضد الاستبداد والظلم، ثم في التأييد لأنظمة الانقلاب على ثورات الربيع العربي، فنشأت على إثره جماعات موالية كالحركة السلفية في ليبيا.

وتأثرت بهذا الاتجاه جماعاتٌ أخرى حتى خرجت عن أصول تكوينها ونسقتها الفكرية كحزب النور السلفي في مصر.

ومن اللافت في دراسة هذين التيارين (الغلاة والولاة):

١- اتفاقهما - على الرغم من التناقض الشديد بينهما في أكثر المسائل والمواقف - على موقف عدائي ومنتشج من الجماعات والحركات الإسلامية في مختلف دول العالم الإسلامي، وتفسيقهم وتبديعهم، وصولاً إلى استحلال دمائهم إما بالتكفير أو زعم الخروج على الحاكم وشق الصف، مما يشير إلى أن هناك جهات توظفها لهذا الغرض، وتعمل على تقويتها وانتشارها.

٢- اتحاذهما موقفين متناقضين من مسألة الحكم، ونسبة كلا الموقفين إلى منهج السلف! فالغلاة: يكفرون الحكام والدول ويخرجون عليهم بالسلاح، والولاة: يفرضون طاعة الحكام وتقديسهم مهما ارتكبوا من مخالفات واستبداد وطغيان، وقد نذروا أنفسهم لمناصرتهم ضد الشعوب المستضعفة وضد مخالفيهم من العاملين في الحقل الإسلامي.

وهذا التناقض يوضح بجلاء حقيقة نسبتها إلى منهج السلف!

خامساً
مسائل تُثار حول
السلفية

ضمن الاختلالات الفكرية والثقافية التي انشرت في العصور المتأخرة انحسر مفهوم السلفية وضاق نطاقها الفكري عند بعض المنتسبين إليها أو المتحدثين عنها حتى صار محصوراً في بضعة مسائل معيّنة، من أخذ بها عدوه سلفياً ولو خالف منهج السلف في عشرات المسائل الكبرى الأخرى، ومن لم يأخذ بها، أو خالف في بعضها لم يعدّوه سلفياً، ولو كان موافقاً لمنهج السلف في عامة المسائل الأخرى!

وتكاد تنحصر هذه المسائل في باب الأسماء والصفات، والموقف من تعظيم قبور الأولياء، والاعتناء بصحة الأحاديث، أو بعض الاختيارات الفقهية.

وقد أحدث هذا القصور في فهم «السلفية» ومن ينطبق عليه خلافاً كبيراً وإساءة لهذا المصطلح الإصلاحي النبيل، كما رأينا في نسبة النماذج المشوهة من جماعات الغلاة وتيارات الولاية إلى المنهج السلفي لاشتراكهم معه في بعض المسائل.

وزاد الطين بلة -وهو خلل ثانٍ- أن صارت أقوال هذه النماذج المشوهة المنكرة، ومواقفهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة، تحسب على المنهج السلفي، فيقال: انظروا، هذه هي السلفية!

ومعلوم أنه إذا انتسب إنسان إلى مذهب أو مدرسة أو طريقة، وحتى وإن كانت تلك النسبة صحيحة ومسلّمة عند أصحاب تلك المدرسة:

فإن هذا لا يجعل آراءه واجتهاداته -فضلاً عن أخطائه - لازمة لتلك المدرسة أو الاتجاه، أو معبرةً عنها، ففرقٌ بين منهج الجماعة أو المدرسة وأصولها وبين ممارسات وتصرفات أفرادها^(١). وها نحن نرى الكثير من المسلمين يرتكبون منكرات شنيعة، وتصرفات مشينة، وربما نسبوها إلى الإسلام -بزعمهم- أو نسبها خصوم الإسلام إليه، فهل يسوغ محاكمة الإسلام من خلال تلك التصرفات المنحرفة والأفهام المغلوطة؟ وهل يتحمّل الإسلام تبعات أخطاء المنتسبين إليه؟!

تتج من الخللين السابقين - نسبة مجموعات إلى السلفية لاعتبارات جزئية، وتحميل أخطائهم المنهجية ومواقفهم السياسية للمنهج الذي يُنسبون إليه- أن شوّهت السلفية وألصقت بها التهم، كالتكفير، ورفض المذاهب الفقهية، وتبني العُنف، والخروج على الحكّام تارة، ومداهنة الحكام الظالمة تارةً أخرى، والفظاظة وإغفال شأن الأخلاق والتزكية، وغيرها.

ولا ينبغي أن نغفل هنا دور أعداء الأمة وحكامها الظلمة في بثّ بذور الشقاق والفتنة، وتآليب المدارس الإسلامية بعضها على بعض، لضربها

(١) ومثل هذا ما وقع لبعض المنتسبين للمدارس الصوفية أو الأشعرية من تأييد المستعمرين، أو الوقوف مع الحكام المستبدين، والوقوف ضدّ الشعوب والمظلومين، وحمل ذلك بعض خصومهم على جعل ذلك سمةً ومنهجاً لتلك الاتجاهات.

جميعاً في النهاية، ولا يبقى منها إلا ما يخدم مصالحهم، فيستميل الحاكم علماء منتسبين إلى مدرسة أو تيار إسلامي، ويوجههم ليضرب بهم التيارات الأخرى، وفي كل تيار من السدج وضعاف النفوس والمتنفعين من يقع في هذه الحبال ويستجيب لهذه المكائد.

ومن أهم القضايا التي أثرت حول السلفية وكثر الجدل في موقف السلفيين منها:

١- الجهاد:

حرص الإسلام على هداية الخلق، وإيصال رسالة «الرحمة للعالمين» إلى كافة الناس لإخراجهم من ظلام الجاهلية إلى نور الحق، ومن ظل الاستبداد والخضوع للعباد إلى فضاء الحرية وعبادة رب العباد، ولكن قد يحول دون ذلك استكبار المشركين، وعندما يأذن الله بتمكين المسلمين بقيام دولتهم، وينتهي قيام المجتمع الإسلامي، فلا بد لهذا الدين من حماية أتباعه مواليدافع عنهم من اضطهاد الكافرين، ورفع الحواجز والموانع التي تحول دون وصول الدعوة إلى البشرية، فشرع لأجل ذلك الجهاد وقتال أعداء الله الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]

فالجهاد بمعنى القتال: مشروعٌ إلى قيام الساعة كما جاءت بذلك الأدلة الشرعية، ومنه قتال المحتلين والمستعمرين، ودفع اعتداء المجرمين؛ حماية للدين والأرض والعرض.

والجهاد بحمل السلاح نوعٌ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينبغي النظر فيه إلى المصالح والمفاسد والآثار المترتبة عليه، ومنها أحكام الدماء والأموال؛ فلا بد فيه من الرجوع لأهل العلم الصادقين لضبط أحواله، وضمان عدم خروجه عما شرعه الله؛ لئلا يتحول إلى أداة قتل طائشة في يد حامله.

وينبغي أن يُعلم أن مفهوم الجهاد في الإسلام ليس مقصوراً على القتال، بل له أنواع ومراتب أخرى تتكامل فيما بينها في خدمة الدين وتحقيقه.

وقد فصل أهل العلم الحديث عن أنواع الجهاد التي دلّت عليها النصوص، ومن ذلك قول ابن القيم رحمه الله: «فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين...»^(١) إلى آخر كلامه رحمه الله.

هذه هي النظرة الشرعية للجهاد، وأما أفعال التفجير والاعتداء والقتل العنيف والوحشي، وإعلان الحرب على دول العالم وحكوماتها،

(١) زاد المعاد (٩/٣).

من قِبَل منظمات تُنسب إلى السلفية أو تدّعي هي ذلك، أو تستشهد ببعض أقوال السلف على تصرفاتها: فهو امتداد لفكر الغلاة الخوارج، وليس من الجهاد في شيء، والسلف ومنهجهم منه براء.

٢- التعامل مع الحكام:

القيام على ولاية الناس وحكمهم من المناصب ذات الأهمية الكبرى في الدين والدنيا، ويتولّى مَنْ يصل إليه القيامُ بشؤون الناس الدينية ورعاية مصالحهم الدنيوية، لذا فقد حفلت النصوص الشرعية ببيان أحكام الإمامة، واجتهد أهل العلم في استنباط وتوضيح الشروط التي ينبغي أن تكون في الحاكم الذي يختاره الناس؛ ليكون أقوى في تحصيل مقاصد الإمامة، وأفضل في أداء ما تولاها.

وفصّلوا في واجبات الحاكم اللازمة له شرعاً تجاه الشعب بما يضمن أداء حقوقهم دون ظلم، كما بينوا الحقوق الواجبة على الشعب تجاه الحاكم في المقابل، وأهمّها الطاعة وعدم شق الصف بالتمرد عليه أو حمل السلاح ضده، مع الإقرار بأحقية الشعب في الرقابة على عمل الحاكم، ومحاسبته من خلال مندوبيهم من أهل الشورى، وكذلك حقّهم في النصح له والإنكار عليه، بل جعل الإسلام من أفضل مراتب الجهاد الإنكار على الحكام الظلمة، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) (١).

ونظراً لما يترتب على التمرد على الدولة أو حمل السلاح ضدها من مخاطر كبيرة على سلامة المجتمع واستقراره وأمنه، وسلامة أرزاق الناس وأعراضهم، فقد أولى أهل العلم مسائل الحكم والتعامل مع الحكام عناية كبيرة حتى إنهم ضمّوها كتب الاعتقاد، وجعلوها فارقاً بين أهل السنة والغلاة من الخوارج وغيرهم.

كما نصّوا على أهمية النظر في المصالح والمفاسد عند التعامل مع الحاكم الذي يمارس الفساد أو الظلم، فمع الإقرار بمشروعية نصحه والإنكار عليه بالضوابط الشرعية، وقد يصل ذلك إلى مرتبة الوجوب في بعض الحالات، إلا أنهم نصّوا على وجوب طاعته والتعاون معه فيما يقوم به من حقٍّ، كالصلاة والجهاد ضد الأعداء.

لذا اشتهر عنهم قولهم: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما» كما ذكره الإمام الطحاوي (٢).

فإذا أصبحت مفاسد بقاء هذا الحاكم أكثر من مصالحها، أو وُجد فيه

(١) رواه أبو داود (٦/٤٠٠، برقم ٤٣٤٤)، والترمذي (٤/٤١، برقم ٢١٧٤)، والنسائي (٧/١٦١، برقم ٤٢٠٩)، وابن ماجه (٥/١٤٤، برقم ٤٠١١)، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) العقيدة الطحاوية ص (٧١).

قصور عن القيام بالمسؤوليات المنوطة به فقد أجاز أهل العلم عزل هذا الحاكم، حفاظاً على مصالح الناس، ودرءاً للمفسدة عنهم.

أما الخروج على الدول وحكامها بالسلاح بسبب التكفير بغير برهان فليس عليه منهج السلف ولا عملهم، بل هو حال جماعات الغلاة وأتباعهم.

وحتى حين يكون كفر الحاكم صريحاً بالبرهان والدليل، فإن الخروج عليه منوط بالاستطاعة، وهو ما يقدره أهل العلم وأهل الرأي، وإلا فهو ممنوع أيضاً.

٣- المذاهب الفقهية:

كان أئمة المذاهب الفقهية الأربعة من أئمة السلف رحمهم الله ورضي عنهم، وقد اجتهدوا في تقرير الأحكام الشرعية وبيانها في مختلف المسائل وفق قواعد دقيقة في استنباط الأحكام والتعامل مع النصوص الشرعية، وورثت الأمة علمهم وتراثهم، وقام أهل العلم وأتباع المذاهب بخدمة هذا التراث بالشرح، والتفعيد، والتفريع، متبعين في ذلك طرقاً فريدة، ومسالك رشيدة، حتى نضجت تلك المذاهب، واحتوت مراجعها ومؤلفاتها على فقه الإسلام، وتراث أهل العلم وأقوالهم واجتهاداتهم.

فصار الطريق السلوك بين أهل العلم، والجدادة المطروقة لمن رام تحصيل الفقه وفهم الشرع أن يتفقه على أحد هذه المذاهب المعتمدة،

الممهّدة لسبيل التحصيل، ومسالك التعلّم، ويتدرّج في رتب التفقّه ومعرفة الأقوال وأدلتها.

وفي الوقت نفسه لا بد أن يكون طالب العلم ذكياً حاضر الذهن، منفتحاً على المذاهب الأخرى، ناظراً فيها وفي تراث علمائها، مستفيداً منها، غير مهمل لها، ولا متعصبٍ منغلق على ما تعلمه وتربى عليه، فضالّته الحكمة والعلم أنى وجده أخذه، وقائده إلى ذلك الإنصاف، واحترام الأئمة، وتعظيم الدليل الشرعي، واعتبار فهم أئمة السلف وأتباعهم.

ويقابل ذلك فهان مغلوطن:

- ١- التلفيق بين المذاهب والتنقل بينها تتبعاً للرخص والأيسر.
- ٢- ترك هذه المذاهب وتراثها، والقفز إلى النصوص الشرعية دون النظر في الضوابط المنهجية التي وضعها أهل العلم لفهمها والعمل بها، كما يفعل ذلك بعض من ينتسب للسلفية بحجة عدم التعصب المذهبي، فهو قد جمع في ذلك بين عدة مخالقات، منها: ترك الجادة التي سلكها الأئمة، وربّوا عليها طلابهم، ومفارقة الأمة فيما اتفقت عليه من حيث الجملة في العمل بالمذاهب الفقهية، والتجرؤ على النصوص الشرعية دون اعتبار لقواعد الفهم وأصول الاستدلال وشروط الاجتهاد والاستنباط، وكذلك مخالفة عامة المنتسبين إلى منهج السلف من علماء

الأمة على مرّ القرون فإنهم كانوا من أتباع المذاهب الأربعة، فابن تيمية رحمه الله -الذي يُعدّ من أعلام التيار السلفي باتفاق المنتسبين إليه- كان على المذهب الحنبلي، وكذلك تلامذته كان كلُّ واحدٍ منهم على أحد المذاهب، فهذا تلميذه الإمام الذهبي كان شافعيّاً، وقال: «مَن بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدّةٌ من الأئمة، لم يسغ له أن يقلّد، كما أنّ الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهادُ أبداً، فكيف يجتهد، وما الذي يقول؟! وعلام يبيني؟! وكيف يطير ولما يريّش؟! والقسم الثالث: الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحق في مسألة، وثبت فيها النص، وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص، وليتورّع..»^(١).

فالسلفية ليست مذهباً فقهياً جديداً، وليست قسماً للمذاهب الأربعة وغيرها من المدارس الفقهية المعتمدة، بل أئمة هذه المذاهب هم من أئمة

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/١٩١). ويريش: أي ينبت له الرّيش.

السلف، وقد أثر عنهم قولهم: «إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي»^(١)، و«إذا جاءكم من قولي ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فخذوا بكتاب الله وسنة رسوله، واضربوا بقولي عرض الحائط»^(٢)، وهل السلفية إلا ذلك؟

٤ - التزكية والأخلاق:

سبق الحديث عن مكانة التزكية والأخلاق عند السلف رحمهم الله تعالى، وأن مما انتقد على بعض المنتسبين لمنهج السلف ما يخالف ذلك من شدة أو غلظة في التعامل، أو العُجب واحتقار الآخرين، فهو خطأ وانحرافٌ عن الأخلاق الإسلامية بلا شك، ولكنه يدخل في السلوك الشخصي، ويتعلق بالتربية، ولا علاقة له بالمنهج.

وفي بعض الأحيان قد تكون الغلظة والشدة في مقابل بعض المخالفات أو التجاوزات التي وقع بها بعض المخالفين، فتكون من قبيل ردِّ الفعل، وإن كان مسلك الحكمة المأمور به في الدعوة إلى الله والتعامل مع الناس جميعاً يقتضي تحسين الخلق والقول مع الناس جميعاً، كما قال سبحانه:

(١) قالها الإمام أبو حنيفة كما في حاشية ابن عابدين (١/٦٧)، وكذا الإمام الشافعي رحمه الله كما في البداية والنهاية (١٦/٣١٧)، ولتقي الدين السبكي رسالة في شرح هذه المقولة ساءها «معنى قول المطلبي إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي»، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية.

(٢) نسبه بنحوه ابن كثير إلى الإمام الشافعي في البداية والنهاية (١٤/١٣٧). ولا يُفهم من هذه الأقوال وما في معناها أنه يسوغ لكل أحد أن يأخذ بالنصوص مباشرة، ويستنبط الأحكام دون توفر شروط الاجتهاد.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، بل أمر الله موسى عليه السلام وأخاه بذلك في خطاب فرعون، وهو أطغى الطغاة، فقال سبحانه: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٥﴾ [طه: ٤٥] فكيف إذا كان ذلك مع مسلمين وقعوا في بعض المخالفة أو الخطأ؟!.

وللإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» وقفات نفيسة مع من وقع فيما يُنتقد عليه من الأئمة والعلماء، وأقوال راثقة في الاعتذار لهم، يغلب فيها إحسان الظن، ويعدل فيها مع المخالف، ويقدم الأعداء، وينصف المتكلم والمتكلم عليه بما لا يدع مجالاً لمتربص أن ينسب ذلك لمنهج السلف.

٥- التكفير:

الأصل فيمن يتلفظ بالشهادتين الإسلام، ولا ينتقل عن هذا الأصل فيسلب المرء وصف الإسلام إلا برهان ظاهر. وخطورة التكفير وما يترتب عليه، فقد جاءت النصوص الشرعية بالزجر عنه إذا كان بلا حجة، ووضع له السلف ضوابط كثيرة، واعتنوا بتأصيله.

ومن قواعدهم العظيمة في ذلك التفريق بين الحكم المطلق والحكم على المعين:

فيُحكم على الفعل بالفسق وبالبدعة وبالكفر إذا دلت الأدلة الثابتة على

ذلك، ويقال بإطلاق: مَنْ فعل كذا فهو (فاسق أو مبتدع أو كافر)، ولكن لا يُحكّم على الشخص المعين إذا صدر منه شيء من هذه الأفعال بالفسق أو البدعة أو الكفر حتى تُبيّن له مخالفته، بإقامة الحجّة، وبيان المخالفة، وإزالة الشبهة، وحتى تجتمع في حقه الشروط المعتبرة في تنزيل الأحكام على الأشخاص، وتتنفي الموانع. ويغلب في ذلك إحسان الظن، ويستصحّب في المعين أصل الإسلام والبراءة حتى تقوم الحجّة وتكتمل الشروط.

أما مسلك الغلاة في التكفير بأدنى شبهة، ووصف الناس بالردة لأعمال لا ترقى أحيانا إلى وصف المعصية (كالجلوس مع الكافر!)، والفهم السقيم لبعض قواعد التكفير كقاعدة: (مَنْ لم يكفر الكافر فهو كافر!)، وعدم اعتبار موانع التكفير كالتأويل والجهل والإكراه، فمن علم منهج السلف تبيّن له أن هذا كله باطل عندهم، ولا يمكن أن يُنسب إلى منهجهم.

ويكفي أن نعلم أن أكثر وأسبق مَنْ رد على الغلاة في منهجهم في التكفير في هذا العصر هم المنتسبون للمنهج السلفي، كما سبق.

٦- الموقف من الدولة العثمانية:

موقف عامة أهل العلم من الدولة العثمانية هو الموقف العام من الحاكم المسلم^(١)، من الاعتراف بحكمهم وسلطانهم، والسمع والطاعة

(١) سبق بحث الموقف من الحاكم المسلم.

لهم، والجهاد معهم، والنصح لهم، ولم يخرج العلماء المنتسبون للسلف عن ذلك؛ فلم يشهد تاريخ الدولة العثمانية صراعاً أو خلافاً مع السلفيين، أو حكماً من السلفيين بعدم مشروعية دولتهم أو التشكيك في جهادها أو منجزاتها.

لكن كثيراً ما يختلط موقف عامة السلفيين بموقف عدد من أئمة الدعوة النجدية (وهو ما اشتهر باسم الوهابية عند كثير من الكتاب) ويعمم ذلك على موقف السلفية عامة، وينبغي أن يُعلم أن العداوة بين الدولة العثمانية والإمارة الناشئة في نجد لها أسباب متعددة منها السياسي، والعسكري، والفكري، ولها ملبساتها التي تحتاج لبحث ونظر.

ومهما كان من أمر فإنه لا يجوز تعميم موقف مجموعة معينة في عصر معين على منهج ممتد عبر القرون، وقد حمل لواءه في كل عصر جهابذة العلماء، وأكابر الفقهاء الذين شهدت لهم الأمة بالإمامة والاستقامة، وعرفوا ببناء العلماء عليهم وعلى دينهم وصلاتهم، بل وجد في عصر الدعوة النجدية نفسه وغير بعيد منها مدراس سلفية حركية إصلاحية في العراق والشام، متفاعلة مع مجتمعاتها ومتعاونة مع المدارس الأخرى في تحقيق المقاصد الدينية والمصالح الشرعية.

الخاتمة

السلفية الحقة: تعني العودة إلى الإسلام الصافي النقي الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، والأخذ بمنهجهم في فهم الدين، وطريقتهم في العبادة، ورحمتهم وعدلهم في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين، واقتفاء أثرهم في نشرهم للنور في أرجاء العالم، وإخراجهم للعباد من عبادة العبادة إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وإذا رامت جماعةٌ أو فرقةٌ بلوغ هذه الغايات النبيلة فأخطات الطريق أو حادت عنه، لا يحملنا هذا على تخطئة الأصل الأصيل الذي ارتضاه النبي ﷺ لأمته مخرجاً من الاختلاف والتفرق قائلاً: (ما أنا عليه وأصحابي).

وما نراه في زماننا هذا من طغيان الباطل، واستخدامه لكل وسيلة في تشويه الحق، وتزيين الشر، ومن ذلك تجنيد مريضي النفوس ومتواضعي الفقه والعلم، ممن يبههم بريق السيف ويطمعهم رنين المال، لمحاربة

الحق وأهله، وتشويه صورتهم، مع التسمي بأسماء مقبولة لدى الناس، وتسئم مناصب مرموقة في أعينهم، ينبغي ألا يجلب عن أعيننا نور الشمس الواضح النقي.

والسلفية الحقة: تتسم بالوضوح والشمول والقدرة على المرونة والاحتواء، فهي منفتحة على الآخرين، وتؤمن بالعمل المشترك، وتراعي أدب الاختلاف، وتمتاز بقدرتها على الحوار وإنصاف المخالفين، وأعمالها ومساهماتها العلمية والاجتماعية والسياسية تصب في بناء الإنسان وإصلاح المجتمع ونهضة الأمة والدفاع عنها ضد أعدائها والمتربصين بها.

كما أنها تحرص غاية الحرص على وحدة الأمة وتعاون رجالها ومؤسساتها - وهي لا تسعى إلى إنشاء مذهب جديد يزيد الأمة فرقة وشتاتاً - بل تؤمن بالاستناد إلى الشركات والعمل للمصلحة العامة، ومراعاة الواقع، والبعد عن كل ما يثير الخلافات والشقاق والنزاع، مستندة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومسترشدة بالدليل الشرعي في بيان الحق، مستخدمة الحجة والإقناع في إظهار الصواب والسداد.

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصحفة
المقدمة	٧
أولاً: تعريف السلف والسلفية.	١١
ثانياً: معالم منهج السلف.	٢١
ثالثاً: السلفية عبر التاريخ.	٣١
رابعاً: النماذج المشوهة للسلفية.	٤٣
خامساً: مسائل تُثار حول السلفية.	٥١
الخاتمة	٦٥
فهرس الموضوعات	٦٧



هذا الكتاب

من التيارات الإسلامية التي كثر فيها الجدل: تيارٌ عريضٌ في حياة الأمة، أميلٌ في تاريخها، كبيرٌ في تأثيره وتفاعله، وهو التيار السلفي، كتب عنه كثيرون ممن يجهلونه على الحقيقة، أو من لهم مع بعض المنتسبين إليه خصومة، أو من نسبوا إليه جماعات منحرفة -هي أبعد ما تكون عن أصوله وتقريرات علمائه- ثم حاكموه بأفعالهم، أو تصرفات أفرادهم.

يضاف إلى ذلك موجة الاستعداد العالمي "للسلفية" الذي يصل إلى حدّ التحريم في بعض البلدان.

مما أدى إلى رسم صورة ذهنية مشوهة عن التيار السلفي عند شريحة عريضة من الناس.

وهذه الأوراق محاولةٌ لرسم منارات مضيئة، ومسارات واضحة تسهم في التعريف الإجمالي بهذا التيار بعبارة مختصرة، بعيداً عن التفصيلات، مستندين إلى الدليل والتاريخ والمنطق، لعلها تساعد في تكوين فهمٍ أفضل، وتصورٍ أدقٍ من خلال توضيح الصورة، وكشف الالتباس، وتصحيح المفاهيم المغلوطة عن "السلفية"، ولعلها أيضاً تقدم الإجابات لما يكثر تداوله والسؤال عنه.